

بين المهابة والعدل

الأستاذ عباس محمود العقاد

—•••••—

بارك الله في سيرة ابن الخطاب حياً وميتاً . أى رجل كان ؟
إنه ليمثل ما دام يذكر ، وإن أزه بعد موته بأربعة عشر
ألف سنة لن أكبر آثار هذه الحياة الخالدة . فإن أكثر من
عشرين ألف شاب في مستقبل الحياة يشغلون اليوم عقولهم ونفوسهم
بفهم المنظمة العمرية في شتى مناحيها ، وليس أنفع للشباب الناشئ
من عرفانه بهذه السليقة العظيمة وهذا الخلق العظيم .
ومن أحب الأشياء إلى أن أتناق في البريد ، حيناً بعد حين ،
سؤالاً من طلاب العلم الناشئين يدل على عنايتهم بالإنفاذ إلى حقيقة
هذا الرجل النادر الذي يدل نظراؤه في تواريخ الأمم كافة . فإن
العقول الفتية لن تسمو في أفق النبوغ بمراج أشرف من هذا
المراج ولا أدنى منه في أساسه السكين .

وقد أخذت نفسى بالإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة
ينتظره مؤلف الكتاب من قرائه المجتهدين في استيعاب معانيه .
وحدت هذه الأسئلة أن تدور على الموضوع ولا تنحصر في معاني
الفردات ، لأن المفردات من شأن المجبات التي تتداولها الأبدى
وليست من صميم الموضوع الذي يرجع فيه إلى المؤلفين .
ومن هذه الأسئلة هذا السؤال من الأديب صاحب الإمضاء .
قال بعد تمهيد نشكره عليه :

« ... لقد كنا نقرأ في باب إسلام عمر فنمضت علينا نقطة
فأردت أن أرسل إليكم كتاباً أوجز فيه التوضيح ، وترددت
كثيراً ولكني تشجعت وكتبته . فإود أن تفسحوا صدركم
الرحب لهذا السؤال .

« ذكرتم في باب إسلام عمر أنه بعد أن أسلم أبي إلا أن
يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناساً في سبيل ذلك الدين ،
وأنه سار إلى الناس يضربونه ويضربهم إلى آخر ما في هذه القصة ،
وهي إن انفتحت مع عدل عمر وحيه للمساواة ، فإنها تناقض
مهابته وشجاعته . إذ من كان يمرؤ على أن يعد نظره — فضلاً
من يده — إلى عمر رضى الله عنه وهو الذي تمنع مرة والمهجم

يقص شعره فما كان من المهجم إلا أن ذهل عن نفسه وكاد أن
يثنى عليه . وكذلك في قصة هجرته التي رواها على رضى الله عنه :
فلم إنها نذل على شجاعة عمر وعدله ، وأنا أرى أن هذه القصة
— وإن كانت برهانا ساطعاً على شجاعة الساروق — فإنها
لا تحمل من معانيها أى شيء من العدل ...

« هذا ما أردت أن أسألكم فيه ... والسلام عليكم ورحمة الله .

فخمى زكى المحرار

بمدرسة شين الكوم الثانوية

ولاشك أن سؤال الطالب النجيب له وجهه ، أو له ما يوفيه ؛
ومن مسوغاته على الأقل توضيح شيء في علم النفس ، يتعلق بحياة
ذلك الرجل العظيم . كما يتعلق بكل حياة .

فالتناقض لا يكون إلا في اختلاف الأثرين الصفة من الصفات
في حالة واحدة ، أو حالات متشابهة .
أما إذا اختلفت الحالات واختلاف الآثار ، فلا تناقض
هنالك على الإطلاق .

لأن الاختلاف يؤدي إلى الاختلاف ، ولا يؤدي إلى اتفاق .
ورب عمل واحد يؤدي اختلاف مناسباته إلى اختلاف
الحكم عليه ، حتى يكون الحكم عليه في إحدى المناسبات تقيض
الحكم عليه في مناسبات أخرى
فأنت تقدم الطعام إلى السائل الجائع فأنت محسن إليه وهو
في مقام المحتاج إليك !

وأنت تقدم الطعام إلى صديقك فهو يسرك بذلك كما تسره ،
ولا تقف منه في هذه الحالة موقف صاحب اليد العليا من صاحب
اليد السفلى ، كما يقولون في مواقف الإحسان .
وأنت تقدم الطعام إلى أميرك فيشرفك أن يقبله ويستجيب
دعوتك ، وبوشك أن يكون محسناً إليك بقبول طعامك ،
ولا تكون أنت المحسن إليه .

والعمل هنا واحد وهو تقديم الطعام .
ولكن اختلاف المناسبة هو الذي يوجب اختلاف الحكم
عليه إلى هذا المدى الواسع من الاختلاف .

ونقترب من الثلث في إسلام عمر فنقول : إن البطل الرياضي
يخفف إذا وقف في حلقة المصارعة ، لا يقترب منه كل مصارع

إذا أنس من نفسه القدرة على الصمود له والأمل في التغلب . . .

ولكن هذا البطل الرياضي يعلم تلاؤمه ويتمرض لمنازلتهم .
عزم إليها ، فيتقدم له أسنهم وأكبرهم على السواء ، وربما
د أن يتمكنوا منه ليربهم كيف يكون النكس من الخصوم .
يشمرون بين يديه بتلك الهيبة التي يشمر بها خصومه عند
في الصراع .

ونقترب خطوة أخرى فنقول : إن الطفل بهاب الرجل
كبير ولا يخطر له أنه قادر على ضربه ، ولكنه إذا علم أن أباه ،
ن رجلا في قوة أبيه ، يستدرجه إلى ملاكته هجم عليه ونسي
رق بين قوته وقوة ذلك الرجل الكبير .

وعمر بن الخطاب كان يتمدد أن يتمرض للضرب في ذلك
نف ، ويسمى بنفسه إلى ضاربيه .

وكان المشركون يملكون ذلك من عمله ومن كلامه ، ثم
ون أنه رد جوار خاله لأنه لا يريد أن يحتذى من ضربهم
ك الجوار .

ومهما يبلغ من مهابة إنسان ، فإن المهابة لا تمنع أن يتكاثروا
عشرون أو ثلاثون وهم في حماسة النيرة على العقيدة حول
ت وأسمائه . ثم ينجلي لهم الخطأ بعد التجربة « حتى يجمعوا
ويقتر من طول الصراع » فيجاس وهم قائمون على رأسه
ونه ، وتمتعهم مهابته مع ذلك كله أن يجهزوا عليه ، وهو
ب بين الفتور .

ونبني أن نذكر هنا أن حماسة الدين كانت تضاف إلى مهابة
بعد إسلامه ، فإن حماسة المسلم لدينه كانت تزيد مهابته لهذا
لم العظيم .

أما حماسة الدين في أنس المشركين فقد كانت تنور على هذه
ة ولا تضاف إليها . فهي هنا من أسباب الاجترار وليست
أسباب التوقير .

وقصة الهجرة التي رواها على رضي الله عنه هي كما قال :
أ علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا غتفياً إلا عمر
الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتكسب قوسه

وانتفى في يده أسهما واختصر عزته ومضى قبل الكعبة واللا
من فريش بناتها . فطاف بالبيت سبماً متمسكاً ثم أتى الحراب
فملى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شامت
الوجه . لا يرغم الله إلا هذه العاطس ! من أراد أن يشعل أمه
أو يوتنم ولده ، أو يرمل زوجته فليأتني وراء هذا الوادي .. «
وقد عقبنا على ذلك فقلنا « إنه كان في تحديه هذا لقربش
عدتان : شجاعته وعدله .

والطالب الأدب يقول إنه يرى في هذه القصة دليل الشجاعة
ولا يرى فيها دليل العدل .

وليست الشجاعة والعدل تقيمين .

وإنما تعرف الصفات بالبواث عليها ، أو بالنيات كما قال النبي
عليه السلام . فتكون الشجاعة على الظلم على قدر التفور منه
وانطباع النفس على الإنصاف .

ولو كان ابن الخطاب يقصد إلى الهجرة وكفى ما كانت به
حاجة إلى هذا التحدي في حرم الكعبة .

ولكنه تحدى الظلم من فرط شموه بالعدل .

وقد كان يشتد على السليين وهو مشرك ، فليس من الإنصاف
أن يتراجع عن المشركين وهو مسلم .

ولقد رأينا أن سديقه أبا بكر لم يستتره بكامة حين أراد أن
يستفيره لحرب الردة كانت أنفل في نفسه من قوله : أجباراً في
الجاهلية وخواراً في الإسلام !

فكانت شجاعته هنا منوطة ببدله ، وكان عدله هو الذي
أوجب عليه أن يقدم بعد إحجام ، ولم يكن إحجامه لقلة الشجاعة
فيه ؛ بل أحجم حتى لمس موضع العدل في العاملة ، فأشفق أن
يكون له ميزان في الجاهلية وميزان في الإسلام .

إن الشجاعة تصدر في النفس من بواث كثيرة :

تصدر من حب الاستملاء فلا نبالي بظلم الضعفاء .

وتصدر من حب الإنصاف فلا نبالي بقوة الطغاة .

وتصدر من الطمع أو من السورة الحيوانية ، أو من جهل

المواقب ، أو من غفلة الحس عن مواطن الخوف .

فأى هذه الشجاعات كانت شجاعة ابن الخطاب ؟

إنها شجاعة الرجل الطيور على العدل ، والرجل الجريء على